مركز أوال للدراسات والتوثيق
AWAL CENTRE FOR STUDIES AND DOCUMENTATION

أرشيفو
ARCHIVO

العدد 11 - آذار/ مارس 2019

محمد جواد المعاميري:
قيثارة دلمون ستحمل صوت البحرين إلى العالم

غنى مونس

آمن محمد جواد المعاميري بالموسيقى. شعر بأنَّ هناك من يناديه، وأنها تُمَكّنه من الرّد عليه، فانطلق في مغامرة حالمة قد يكون البعض، حتى الأقربون، وصفوها بالجنون، غير أنه لم يتمكَّن من تركها، أحبَّها أكثر مما يحب الحياة، بل أكثر مما يحب نفسه، فتبع حدسه.

وكما سافر جلجامش إلى البحرين الدلمونية، سافر المعاميري إلى دلمون نفسها، أصغى إلى موسيقاها وتبعها، وكان دليله في سفره، رأس ثور.

كيف وُلِدت القيثارة؟

درس الناشط البيئي البحريني، محمد جواد المعاميري، الموسيقى في السبعينيات في مصر، لتحمل صوت قضاياه. استنفد كلّ الأساليب الممكنة، من مناشدات وعرائض، لإيجاد حلول للوضع البيئي المتدهور في البحرين عامة، وفي المعامير، القرية التي تقع ضمن منطقة صناعية، ويحيط بها ما لا يقل عن 130 مصنعًا وورشة، بشكل خاص، فأسس فرقة "موسيقيون مستقلون". ولكونه موسيقيًا، بثّت الأنغام شكواه، فذهب بملفه في مؤتمر تغير المناخ التابع للأمم المتحدة.

"حمل [المعاميري] قريته الصغيرة المنكوبة على ظهره"، وذهب إلى كوبنهاغن ليعرض القضية أمام الرّأي العام. روى هناك، على أوتار عوده، "قصة القتل غير الرحيم، الذي يتعرّض له أهل قريته على يد المصانع الرأسمالية والورش الصناعية المقامة على أرض تملكها الدولة".

اهتمام المعاميري لم ينصبّ على بيئة البحرين وحدها، بل امتدّ إلى تاريخها. في لقاء له مع المؤرخ محمد البقلاوة، المختصّ بالحضارة الدلمونية، تداولا أطراف الحديث عن رأس الثور المكتشف في العام 1981 في البحرين.

كان المعاميري يعرف فقط أنّ رأس الثور هذا رمز مقدس. فوجئ بأنه يمثل رأس

القيثارة الدلمونية، توأم القيثارة السومرية.

أجرى عددًا من الأبحاث والدراسات حول دلالة هذا الثور، حجمه، إضافةً إلى ختم يحمل رسم الرأس، موجود حاليًا في متحف باربار في البحرين، وختم آخر يحمل رسم القيثارة بكل تفاصيلها. وتساءل: لماذا لا أحاول أن أعيد تركيب هذه القيثارة؟ أخبر صديقه المؤرخ البقلاوة عنها، فشجّعه على التفكير جديًا على ذلك، لكن الوضع الصعب في البحرين أخّره عن ذلك بعض الشيء. مرت خمسة أعوام، وظل الحلم يؤرقه، إلى أن قرر السفر إلى لبنان.

في بيروت، قابل شخصًا مختصًا بصناعة الآلات الموسيقية. عرض عليه المشروع، لكن الأخير تخوف من الفكرة، فهو لم يرَ مثل هذه الآلة من قبل، وطمأنه المعاميري: "سأكون معك ليلًا ونهارًا". هذا ما حصل فعلًا، على مدى ثلاثة أشهر.

هنا، برز تحدٍ كبير. يمكنك أن تعيد تصنيع آلة، بمقاييس متناسقة، وفقًا لدراسات أجريتها، ورسومات اطلعت عليها، لكن السؤال الأصعب: هل يمكنك أن تجعلها تعمل؟

فيما يتعلق بالأوتار، والسلم الموسيقي، بدا الأمر مستحيلًا، ولا سيما أن هذه القيثارة تعد أول آلة وترية في العالم، وفقًا لما أقره المتحف البريطاني.

براءة اختراع موسيقية

شبه الاستحالة هذا لم يُثنِ المعاميري عن مواصلة جهوده. شهد ليالي وأسابيع من العمل الدؤوب والمتواصل والانقطاع عن الأهل، مكررًا كلما اتصلوا به: "كلموني لاحقًا، أنا الآن مشغول".

ومنذ بضعة أشهر، وجد ضالته. القيثارة القديمة تقوم على 11 وترًا، غير أنه أضاف إليها الوتر الثاني عشر. وكان هذا السبب في حصوله على براءة الاختراع من وزارة

الاقتصاد في لبنان.

وبعد أن كانت تُستخدم فقط لعزف الأطوار الموسيقية البحرانية الدلمونية القديمة، أصبح من الممكن عزف موسيقى الشعوب الأخرى عليها بتغيير السلم الموسيقي، فقد كانت القيثارة القديمة مؤلفة من 11 وترًا، غير أنَّ السلّم الموسيقي فيه اثنتا عشرة نغمة، وهذا ما حققه المعاميري. جعل الآلة متوافقة مع السلم الموسيقي، تمامًا كالبيانو أو أي آلة موسيقية أخرى، وهو يرى أنه يمكن "أن تكون الشعوب القديمة قد اكتفت بالأوتار الـ 11 وبأنغامها، غير أنه بهذه الإضافة، يمكن عزف موسيقى كل الشعوب على قيثارة دلمون، إذ يمكن تغيير مفاتيح الأوتار بحرية تامة".

بالنّسبة إلى المعاميريّ، تسجيل براءة الاختراع باسم "القيثارة الدلمونية" يضيف الكثير إلى البحرين، وقد عرّف ذلك العالم على الحضارة الدلمونية، حين نقل عدد من وسائل الإعلام العربية حفل التدشين، وبالتالي أثار اهتمام الكثيرين بها.

الألحان الدلمونية

يؤكد المعاميري أنّه تم توارث الألحان الدلمونية. بالنسبة إليه، فهي ذاتها الألحان التي تستخدم على منابر العزاء الحسينية، وتؤدى عند رفع الأذان. "أي حضارة تخضع لتغيرات، على مستويات كثيرة، وخصوصًا الدين واللغة والتقاليد، وحدها الموسيقى تبقى ذاتها، وإن تغيرت اللغات".

وبالنسبة إليه، الموروث الموسيقي البحريني لم يتغير، تغيرت اللغة لكن اللحن بقي. وعلى ذلك، استنبط ألحانًا عزائية رثائية لأحد المؤلفين البحرينيين، الشيخ الدمستاني، وهي قصيدة تعود إلى أكثر من مائتي عام، وتشكّل أقدم لحن متداول حتى اليوم في البحرين.

يعِد المعاميري بالكثير من المقطوعات الموسيقية المتوارثة من الأجداد: ألحان الفرح والعزاء. سيؤدي في حفلاته المقبلة أغاني البحر، وأيضًا صيد اللؤلؤ. كيف لا، وقد اصطاد على وقعها قيثارة دلمون ولؤلؤاتها الساحرة من محار الزمن.

موسيقى دلمون في بيروت

عزف المعاميري في حفل افتتاح أقيم في العاصمة اللبنانية بيروت موسيقى حضارته وأنشد ألحانها. حضرت دلمون من قلب التراث المُغنى بكلّ بهائها، وحضر المعاميري بعمامته ورداءه التراثيين، اللّذين استوحاهما من قلب كتب التاريخ، غير أنّه لم يقدم البرنامج الذي كان قد خطّط له.

التزام المعاميري بالقضايا جعله يغير البرنامج، كان في جعبته الكثير لذلك المساء، لكن مجزرة غزة، التي أدّت إلى سقوط أكثر من ستين شهيدًا، جعلته يلغي الكثير من المقطوعات التي أعدّها، عزف مقطعًا موسيقيًا واحدًا فقط، وكان التضامن مع الشعب الفلسطيني المحور الأساس للأمسية. وكانت تلك نقطة الانطلاق.

بيروت، التي شهدت تدشين القيثارة الدلمونية، لن تكون محطتها الأخيرة، وفقًا له، فهو يطمح لأن يحملها إلى كل دول العالم التي تحترم فن الآخرين وثقافتهم.

أنغام المعاميري الأخّاذة تحمل رسالة واضحة وصريحة: "الموسيقى موجودة لتُذَكّرنا بسوانا في هذا الكون، ولتُذَكّر سوانا بنا"، وكأنها تقول للعالم كله: "هنا في البحرين، الموسيقى تحيط بنا، وتحمل صوتنا وقضايانا أيضًا، كل ما عليكم فعله هو الإصغاء".